بين يدى القارئ

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ...

العربى بطبعه متفلسف ، وكلامه ـ عندما تصفو قريحته ويهدأ باله ـ لا يخلو من تفلسف ، وأحسن شعر قالته العرب هو شعر الحكمة ، ومن أيام زهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، إلى أحمد شوقى ، ومحمود حسن إسماعيل ، كانت الحكمة ضالة أهل الشعر والنثر والفكر من العرب . وهناك حديث نبوى شريف يقول : « **الحكمة ضالة المؤمن** » .

والحكمة : هى الفهم الصحيح للكون والحياة ، وتلك هى الغاية الأخيرة من الفلسفة والتفلسف ، وتلك أيضاً هى الغاية الأخيرة من كتابة التاريخ ؛ لهذا يحب العربى أن يقرأ التاريخ التماساً للحكمة ، ومطالعة أسفار التاريخ طلباً للموعظة . ومعظم ملوك المسلمين ـ وأولهم معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان ـ كانوا مشغوفين بأخبار الماضين، تُقرأ عليهم تواريخ الأولين ساعة من الليل ، فلا غرابة إذن فى أن يكون ثلث تراث الفكر العربى فى التاريخ ، وما من شىء إلا أرّخوا له : الرجال ، والأديان ، والعلوم ، والآداب ، والمدن ، والأمم والشعوب .

***

ولكن العربى كان أقل الناس اعتباراً بالتاريخ ، إنه يقرأ التاريخ ليلتمس الحكمة ، فينسى التاريخ والحكمة جميعاً . ومعاوية بن أبى سفيان كان يقرأ عليه تاريخ الفرس ، ولكن ما من خطأ وقع فيه الأكاسرة ، إلا وقع هو فيه . وهارون الرشيد قرأ تاريخ الأمويين ولم يعجبه أن عبد الملك بن مروان أوصى لأولاده الأربعة بالخلافة من بعده على نسق ، ومع ذلك فهو نفسه أوصى لأولاده الثلاثة على الترتيب، فكانت حرب الأمين والمأمون،وقتل الثانى منهما الأول، وتضعضع ملك بنى العباس .

فأين الاعتبار بالتاريخ ، والاتعاظ بما وقع فيه ؟!

والسبب فى ذلك أن العربى لم يقرأ شيئاً خارج القرآن والسنة وعلوم الدين قراءة جد واحتفال ، إنما القراءة كلها عنده تسلية وإزجاء فراغ ، ولا يكاد يدع الكتاب حتى ينساه وما فيه ، ولكن أمماً أخرى عرفت فضل التاريخ بأكثر مما عرفه العرب ، أخذوه مأخذ الجد ، واحترموه ودرسوه ودققوا فيه وحققوا ، وحاولوا أن يتعرفوا مساره وما وراء حوادثه ، وبحثوا عن مادته ومغزاه ومعناه ، وحاولوا أن يكتشفوا قوانين وقواعد تحكم مساره ومجراه ، وقد حاول ذلك ابن خلدون فى مقدمته ، وسنعرض لبعض آرائه فيما يلى من صفحات هذا الكتاب . وغاية ما انتهوا إليه أن التاريخ لا تحكمه قوانين ، بل منطق ، فتصاريف التاريخ لا تسير على قواعد ، بل على منطق ، لأن الإنسان ـ مادة التاريخ ـ لا يسير فى تصرفه على قواعد محددة ، بل يتصرف بحسب المنطق الذى يتراءى له ، وقد يكون المنطق الذى يسير عليه خطأ ، ولكن واجبنا ـ نحن المؤرخين ـ هو التعرف على هذا المنطق أولاً ، ثم الحكم عليه بعد ذلك . وبعض أهل العلم يرون أننا إذا عرفنا منطق الماضى ، أفادنا ذلك فى إدراك منطق الحاضر والمستقبل . وهذه قضية تحير فيها أولو الألباب .

وفى هذا الكتاب إيجاز لعلم التاريخ عند الغرب وأهله ، ونظراتهم فيه ومذاهبهم فى درسه وفهمه . وقد اجتهدت فى أن أوجز الكلام فيه قدر الطاقة ، ورجوت أن ينفع الله به أهل التاريخ ممن فرغوا له وتخصصوا فيه ، وكذلك أهل الفكر عامة ممن تستهويهم كتب التاريخ ، ويطلبون من قراءته زاداً للعقل وعتاداً لمعرفة أسرار الحياة .

وعندما تعرضت لما يسمى بفلسفة التاريخ ، قلت فيها رأى أصحاب التاريخ ـ وكان لا بد أن أورد آراء أصحاب الفلسفة . والفلسفة ميدان عسير ، له منهج ومصطلح ، لا مدخل لى إليهما ، برغم ما بذلت فى ذلك من جهد ، فرأيت أن أنقل ـ فى ذلك المطلب ـ كلام رجلين من أهل الفلسفة ، فيما حاجتنى مطالب الكتاب إلى الكلام فيه ، وهما : الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا ، والأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام ، فنقلت عن مؤلفاتهما ما رأيت أنه ينفع قارئ هذا الكتاب ، وكان لزاماً علىّ أن أنوه بذلك فى تلك الكلمة، وأن أعبر لهما عن صادق التقدير.

ولم أذكر من أهل التاريخ عند العرب إلا أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون ، وشمس الدين السخاوى من بين الكثيرين الذين أحبوا التاريخ وألفوا فيه ، وزادوا على ذلك .. فالتمسوا الحكمة فيه ، ولم أصرف العناية لدراسة تاريخ التاريخ عند العرب ، فهذا مطلب قائم بذاته ألف فيه الكثيرون ، وكتبنا نحن فيه كذلك فصولاً.

ولم أكتب فى هذا الكتاب فى موضوعات مهمة ـ مما يدخل فى صلب التاريخ ـ مثل الحضارة والتقدم والثقافة ؛ لأننى استوفيت الكلام فيها فى كتابى عن الحضارة .

وقد استعملت لفظ التاريخ ـ بدون همز ـ للتاريخ المكتوب أو المقصوص ، كما تقول : « تاريخ مصر » أو تاريخ النهضة الفرنسية . واستعملت لفظ التأريخ ـ بالهمز ـ لصنعة التاريخ وتأليفه وما ينبغى له .

وأسأل الله سبحانه أن ينفع به ، فقد قرأت الكثير لأكتب القليل تيسيراً على القراء .

والله سبحانه من وراء القصد ، وهو على كل خير مستعان .

القاهرة ـ فى أغسطس ١٩٨٤م .

د . حسين مؤنس

obeikandl.com

تمهيد

كان ينبغى أن أبدأ هذا الكتاب بالكلام عن لفظ التاريخ وأصله ومعناه عند العرب والمسلمين عامة ، ولكن زميلاً كريماً تناول هذا الموضوع بتفصيل فى كتاب حديث ، وقد أوفى على الغاية فيما قاله فى هذا المجال ، وتحدث فيه باستفاضة وعن سعة اطلاع[1] ، فأغنانى ذلك عن إنفاق الصفحات فى تكرار نفس المعانى ، خاصة والكتاب حديث متداول بين أيدى الناس .

ولا أضيف إلى ما ورد فى ذلك الكتاب إلا ما يقال من أن أصل لفظ التاريخ العربى مشتق من لفظ Arch الذى ينطق فى اليونانية (أرخ) ومعناه : القديم أو القدم ، ومن هنا يسمى علم الأثريات القديمة بالأركيولوجيا Archeology ، ويستعمل اللفظ اليونانى بعد دخوله اللغات الأوربية فى معنى الأصل أو الأصيل ، فيقال : Archtype ، أىْ : النموذج الأوَّلى أو الأول ، أو لفظ Archbishop بمعنى الأسقف الكبير ، وكان يراد به الأسقف الأصيل ومن بعده يتبعه . وفى مصطلح الديانة المسيحية يوصف جبريل ـ عليه السلام ـ بأنه الأركانجل Arcangel وأصله Archangel . ولفظ History وما يقابله storia فى الإيطالية ، و Histoire فى الفرنسية ، و Historia فى الإسبانية : مشتق من لفظ (سْتُوريا) اليونانى ، ومعناه : الحكاية ، ومنه لفظ Story الإنجليزى ، وقد دخل العربية قبل الإسلام بمعنى الحكاية ، أو القصة ، ومصطلح (أساطير الأولين) كثير الورود فى القرآن الكريم بهذا المعنى .

وقد ألف فى علم التاريخ عند العرب فرانتس روزنتال كتاباً موسعاً ، وجعله تعليقاً على ترجمته الإنجليزية لكتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ » لشمس الدين السخاوى ، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية صديقنا العلاّمة الأستاذ الدكتور

---

(١) د. قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية عند العرب والمسلمين ـ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م .

الصالح العلى ، فأتى فى ترجمته بإحسان كثير ، وأتى بنصوص الكتب التى ألفها العرب فى علم التاريخ، وعلَّق عليها تعليقاً ضافياً فى سفر جليل حفيل ، عنوانه « تاريخ علم التاريخ عند المسلمين » وهو كتاب جامع ، أرجو القارئ أن يرجع إليه، ويفيد منه فى كل ما يطلب من العلم بالتاريخ عند العرب .

***

obeikandl.com

مدخل

التاريخ ومكانته بين العلوم

ـ تمهيد .
ـ مثال من اختلاف الناس حول طبيعة التاريخ ووظيفته .
ـ رأى ابن خلدون ونظرية هيجل .

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الإنسانية مكانًا صدراً ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التى تصدر فى الشرق والغرب على السواء ، وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، كانت المؤلفات فى التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخى وآثار وسياسة ومذكرات تكوِّن خُمس المكتبة العالمية .

وفى أيامنا هذه ـ ورغم اتساع ميادين المعارف ، وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها ـ لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانباً ضخماً مما ينشر كل عام، وخاصة إذا أضفنا إليها ذلك النوع الجديد من الكتب الذى يؤلفه نفر من أذكياء أهل الصحافة والأدب عن : حوادث التاريخ الجارى Current History ورجاله ، ويكفى أن نشير إلى العدد الضخم من المؤلفات التى صدرت خلال السنوات الأخيرة عن : قضايا فلسطين ، وفيتنام ، والأمن الأوربى، والاستعمار الجديد ، والشيوعية والاشتراكية وتحرر العالم الثالث، وما إلى هذه من موضوعات التاريخ المعاصر ورجاله من أمثال لينين ، وستالين، وماوتسى تونج، وهو ـ شى ـ منه، وونستون تشرشل، وشارل دى جول ، وجمال عبد الناصر ، وإيرنستو (تشيه) جيفارا ، وجون كينيدى وغيرهم ، وكل هذه كتب صحفية الطابع فى التاريخ المعاصر ، تنشر وتباع بعشرات الألوف ـ بل مئاتها ـ مما يدل على أن التاريخ لا زال من أكثر فروع المعرفة الإنسانية قرباً إلى قلوب الناس .

ومع ذلك فما زالت حقيقة « التاريخ » ، ومكانته بين العلوم ، وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة، وقد عرض شمس الدين السخاوى (٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ / ١٤٢٧ ـ ١٤٩٧م) فى كتابه المشهور « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين ، وأعطانا صوراً من المآخذ التى كان علماء عصره يوجهونها إلى أهل التاريخ ، وحاول الدفاع عنهم ، وهو لم يوفق لا فى العرض ولا فى الدفاع ، فقد

كان أقصى ما قاله فى مدح التاريخ أن جعله أحد العلوم المساعدة لعلم الحديث ، ولكنه على أى حال أعطانا فكرة واضحة عن مشكلة علم التاريخ عند العرب والاختلاف بينهم فى تقديره والحكم عليه .

وتتلخص آراء الناقدين لعلم التاريخ من المسلمين فى أنه علم لا ينفع ، إذ هو يشغل الإنسان ـ بأخبار الماضين وأساطير الأولين ـ عما ينفع الإنسان فى أخراه من علوم الدين ، ثم إنه يعرِّض صاحبه للكذب عن علم أو غير علم؛ فهو لا يدرى إن كانت الأخبار التى يسوقها صحيحة أم غير صحيحة ، ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين أنه غِيبَة ، لأن المؤرخ يتناول الغائبين بالذم والنقد ويكشف عن عيوبهم ، والإسلام ينهى عن الغيبة ، ثم إن بعض المؤرخين يخوضون فى أعراض الناس ويسيئون إليهم، ولهذا تحامى الكثيرون ـ من أهل الخُلق والتصاون ـ الكلام فى التاريخ ، حفاظاً على خلقهم .

ولكننا نعذر الماضين من أهل الفكر عندنا فيما وجهوه للتاريخ من نقد ؛ لأنه ما زال بين أهل عصرنا من كبار المفكرين ـ والفلاسفة خاصة ـ من ينكرون وجود التاريخ أصلاً، ويقولون: إن التاريخ يُعنَى بما مضى وانقضى من الأحداث، وما دامت قد مضت ، فهى غير ذات وجود حقيقى ، وهى لا تُبعث إلى الحياة إلا فى ذهن المؤرخ ، فالمؤرخون وحدهم ـ فى رأى هؤلاء ـ هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لأنه صنعتهم ومدار حياتهم ، أما مَنْ عداهم فلا وجود للتاريخ فى حسابهم ، وهم لا يحسون بالحاجة إلى معرفته ، ويحلو لكثير من أهل العلم أن يرددوا قول هنرى فورد: « التاريخ لغو History is bunk » .

ولكن التاريخ ـ كما سنرى ـ ليس لغواً ، فهو لا يقتصر على أخبار الماضين وأساطير الأولين ، بل هو يدرس التجربة الإنسانية أو جوانب منها ، ويسعى إلى فهم الإنسان وطبيعة الحياة على وجه الأرض ، وإذا نحن اعتبرنا الحياة طريقاً يقطعه الإنسان ، فلا شك فى أن معرفتنا بما قطعناه من الطريق يعيننا على قطع ما بقى منه ، وسنأتى ـ فيما بعد ـ بفقرة طويلة وافية عن فائدة التاريخ ، وضرورة دراسته ومعرفته.

مثال من اختلاف الناس حول طبيعة التاريخ ووظيفته :

رأى ابن خلدون ونظرية هيجل:

وما زال تعريف ابن خلدون للتاريخ ـ فى فاتحة مقدمته ـ يعتبر من أدق ما قيل فى هذا العلم عند العرب ، وهو تعريف أعجب به وأشار إليه نفر من كبار المؤرخين فى الغرب ، من أمثال : كولنجوود ، وتوينبى ، برغم أنه لم يترجم إلى الإنجليزية ترجمة دقيقة إلا على يد فرانتس روزنتال فى السنوات الأخيرة ، وترجمته دقيقة ، ولكنها خالية من الروح ، وأفضل منها وأكثر حيوية الترجمة الفرنسية التى صنعها فنسان مونتاى ، وسنشير إليها فيما بعد .

قال ابن خلدون ـ بعد مدخل بلاغى ـ : « أما بعد : فإن فنّ التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتُشَدّ إليه الركائب والرِّحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، إذ هو فى ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأُوَل ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرَف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان لهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لهذا أصيل فى الحكمة عريق » .

وهذه عبارة تدل على فهم ذكى لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فهو « فى باطنه نظر وتحقيق » أى : تفكير فى طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم ، وبحث عن أسباب الحوادث وتحليل لنتائجها ، فهو على هذا ـ كما يقول ابن خلدون ـ « أصيل فى الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق » . والحكمة ـ فى المفهوم العربى ـ هى أعلى مراتب العلم ، فهى الفهم العميق ، وقد قرنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالكتب السماوية فى القرآن الكريم ثمانى مرات ، وعبارة « الكتاب والحكمة » عبارة قرآنية لا تزال تتردد فى الأسماع والقلوب .

ولكن يستوقف النظر أن ابن خلدون يَنْظِم التاريخ فى سلك الفنون لا العلوم

والفن بمعنى « الضرب من الشيء » كما جاء فى « لسان العرب » أقل منزلة وأهمية من العلم الذى هو معرفة أكيدة . نعم إن ابن خلدون عاد فعقد فصلاً عن فائدة التاريخ سماه « فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها » ، ولكنه يبدأ هذا الفصل ذاته بقوله : « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب » ، فكأنه غير مقتنع تماماً بأن التاريخ علم مستكمل لأشراط العلوم .

وهذا الفصل الذى نشير إليه يدور حول وظيفة التاريخ أو فوائده، وهو يعطينا فكرة عن رأى ابن خلدون فى قيمة التاريخ وفضائله فى نظر ذلك المفكر الكبير ، قال : « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يُفْضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط » .

وخلاصة هذا الكلام هى أن التاريخ ينفع فى العظة والعبرة ، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا عن المزلات ومواطن الضرر، وهذه ـ فى رأينا ـ هى أعظم فوائد التاريخ فى نظر دارسيه من العرب ؛ ولهذا نجد ابن خلدون يسمى تاريخه الكبير « كتاب العبر » .

ولا ندرى كيف غاب عن ابن خلدون أن أحَداً لا يعتبر بما يقرأ من التاريخ ، ولقد كان الملوك فى الماضى من أكثر الناس مطالعة للتاريخ . ومع ذلك فما اتعظ أحد منهم بما قرأ ، فنجدهم جميعاً يقعون فى نفس المغالط التى يقرأون عنها فى الكتب ، وهم يرون أنها أدت بالملوك السابقين إلى التلف ، ومع ذلك يسيرون فى نفس الطريق ، وكل الظلمة فى تاريخنا كانوا من المشغوفين بالتاريخ ، فأين فائدتهم من ذلك ؟! والسخاوى نفسه يحدثنا عن شغف نفر من سلاطين المماليك وأمرائهم بالتاريخ ، ومع ذلك فقد كان أولئك المماليك من أجهل الناس بالسياسة

والحكم ، وأقلهم معرفة بتجارب الأمم ، وأكثرهم إسرافاً فى العدوان على أموال الناس وأبشارهم ، فأين استفادتهم مما قرأوه ؟! .

والحق أن الكثيرين يقرأون التاريخ ليتعلموا منه ، وليوعظوا به ، ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ؛ لأن الإنسان قد يعجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ، ولكنه لا يتعظ به ؛ لأن الموعظة لا دخل لها فى التجارب الإنسانية ، فمهما حذرت ابنك من الاندفاع وراء اللهو والمتعة ، فإن تحذيرك لن ينفعه إذا كان فيه ميل إلى ذلك ؛ لأنه لابد أن يجرب بنفسه .

واسأل نفسك : إننا ـ معاشر العرب ـ من أكثر الأمم تأليفاً فى التاريخ وقراءة له ، حتى إن مناكبنا لتنوء بثقل ما نحمل من أعباء التاريخ ، ففيم نفعنا ذلك ؟ .. وها نحن منذ الدهر الآبد نقع فى نفس الأغلاط ببلاهة تدعو إلى العجب .

ثم إننا نرى فى كلام ابن خلدون عن فائدة التاريخ إبهاماً لا نرتضيه ، فما المراد مثلاً بقوله: إن التاريخ «عزيز المذهب شريف الغاية»؟ لقد اختلط أمر معنى «عزيز » و « شريف » على فنسان مونتاى مترجم المقدمة إلى الفرنسية فى سلسلة الروائع الإنسانية التى تنشرها منظمة اليونسكو، وترجمهما بلفظ واحد وهو No-ble وهو لفظ فرنسى مبهم المعنى أيضاً ، مثله فى ذلك مثل مقابله فى العربية : «نبيل».

ونحن لا نلوم ابن خلدون فى لجوئه إلى هذا التعريف غير الدقيق لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فبعد وفاة ابن خلدون بأربعة قرون وربع القرن (توفى فى ١٧ مارس١٤٠٦م) ألقى جورج فلهلم فريدرخ هيجل محاضراته المشهورة فى فلسفة التاريخ فى شتاء سنتى ١٨٣٠، ١٨٣١م، وقال فيها:« إن تاريخ البشر كله يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها أن تحرز تقدماً روحيًا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشرى أن يحرزه فى طريق معرفته لنفسه » ، وقال : « إن التاريخ يسير وفقاً لخطة Plan . ومهمة الفيلسوف هى معرفة هذه الخطة » . ولقد عجز الكثيرون من المؤرخين المبرزين عن الكشف عن أية خطة ، واكتفوا برواية الأحداث ، ووجد آخرون مفتاح التاريخ فى قوانين مختلفة ، ذهبوا إلى أن

الطبيعة تعمل بموجبها . أما تفكير هيجل فيقوم على الإيمان بأن التاريخ هو تحقق الغاية التى أرادها الله من وراء الخلق ، وأن الإنسان وصل فى بداية القرن التاسع عشر إلى درجة من التقدم تمكنه من الكشف عن هذه الغاية ، وهى : تحقيق حرية البشر تحقيقاً تدريجياً . والحرية التى يعنيها هيجل هى تحرر الإنسان من عقال الجهل والخوف والظلم .

وفى رأى هيجل أن الخطوة الأولى ـ فى هذا الطريق ـ كانت الانتقال من حالة التوحش الطبيعية إلى مستوى النظام والقانون ، وخلال هذه المرحلة كان لابد من إنشاء الدول ، وكان على أولئك الذين أنشأوا هذه الدول أن يستعملوا القوة والعنف ، ولا سبيل غير القوة والعنف لإلزام الناس بطاعة القانون قبل أن يصلوا إلى درجة كافية من التقدم العقلى تجعلهم يلزمون النظام والقانون من تلقاء أنفسهم ، وهذه العملية لا يمكن أن تتم بالنسبة لكل البشر فى نفس الوقت ، فهناك مرحلة يصل فيها بعض البشر إلى هذا الإدراك لقيمة القانون واحترامه ، فيصلون بذلك إلى الحرية ، فى حين لا يستطيع بعضهم إدراكها فيظلون عبيد الجهل . وذهب هيجل إلى أن الإنسانية وصلت فى أيامه إلى مستوى من الفهم يجعلها توقن بأن البشر جميعاً أحرار نظريًا ، وأن واجبنا أن ننشئ النظم التى تجعل هذه الحرية حقيقة .

وقد وقفنا عند هيجل هذه الوقفة القصيرة فى كلامنا عن ماهية التاريخ لكى نضرب للقارئ مثالاً من الاختلاف الواسع المدى الذى يمكن أن يقع بين فلاسفة التاريخ حول طبيعة التاريخ ووظيفته ، فإن ابن خلدون ـ كما نعلم ـ وضع نظرية دورة العمران ، وقال : إن مسار التاريخ دائرة مغلقة سيئة ، لا يزال الإنسان يدور فيها حتى يطوى الله الأرض وما عليها . أما هيجل ، فيرى أن هذا المسار خط مستقيم يبدأ عند البداوة والتوحش ، ولا بد أن ينتهى يوماً ما إلى تحرر البشر جميعاً وعيشهم فى سلام فى ظل القانون .

وقد نبعت فلسفة كل من ابن خلدون وهيجل من تجربته الخاصة والطريق الذى سارت فيه تجربة الأمة التى انتسب لها، فقد عاش ابن خلدون فى عصر

شقيٌّ مضطرب ، وتَلَفَّتَ إلى ورائه فرأى أن تاريخ أمم العروبة يتلخَّص فى سلسلة من التجارب الحزينة الفاشلة ، فساء ظنه بالدنيا والناس ، وصور تاريخ البشر فى هذه الصورة اليائسة ، أما هيجل فقد كتب فى عصر وصل الغرب الأوربى فيه إلى استقرار نسبى ورخاء وغنى وسيادة ، فامتلأت نفسه بالتفاؤل وقال : إن الإنسانية تسير من حسن إلى أحسن ، وإنها ستصل فى يوم ما إلى هدفها الأسمى الذى ذكرناه .

وقد كان هيجل يحسب أنه قال آخر كلمة فى فهم التاريخ ، وأنه وضع يده على الخطة أو الخط الذى رسمه الله سبحانه لمسيرة البشر على وجه الأرض ، ونسب إليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوى على غرور كثير ، وهى قوله : «عندى ينتهى التاريخ » والحق أن الرجل لم يقل شيئًا من ذلك كما أثبته تلميذه ومجدِّد فلسفته فلهلم دلتاى Wilhelm Dilthey ، وإنما زعمه خصومه من الماركسيين. ومن المعروف أن كارل ماركس وأتباعه اجتهدوا فى هدم آراء هيجل، وقد أبغضوه لإيمانه الشديد بالمسيحية ، ولمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التى سادت الغرب فى أيامه .

***